

أرأيت كيف غضب حين قال أبوذر الغفاري لعبد زنجي: "يا ابن السوداء" وقال له: طفّ الصاع طفّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح؟ انظر إليه يقرر في حجة الوداع دستور المسلمين في هذا الصدد، فيقول: "أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب".

فلما بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأعلم الناس بوحدة الخالق وبوحدة المخلوق انتهت مهمته في هذا العالم، ففارقه مطمئنا، تاركا فينا ثروة، لو تمسكنا بها لكانت نورا هاديا إلى سبيل الرشاد.

وهي تلك الثروة التي لا نجد لها شيئا من عمل الإنسان، فقد ناقضت ما كان عليه أهل الحجاز من عادات وعقائد وتقاليد، وما رآه فلاسفة اليونان والرومان ووصلوا إليه من ثقافات، بل كانت ثورة عليها لأنها كانت تستعيد الإنسان للإنسان وقد خلق الله الكل متساوين في الحقوق والالتزامات.

وحق لها ذلك، فهي دين الخلود، وخاتمة الإديان، ومكملة الرسالات التي جاء بها النبيون من قبل: إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وعيسى والنبيون أجمعون، وبذا اختتمت سلسلة الرسالة واكتمل بناء النبوة.

وقد كانت الشعوب المضطهدة تستقبل المسلمين ترحيب واستبشار بل يدعونهم للدخول، ويفتحون لهم الأبواب، كما فعل المقوقس رئيس أقباط مصر، وغيرهم من الشعوب وحكام الأقاليم، لينقذوهم من برائن الحكم الغاشم، حكم الدخلاء الغاصبين، إذ أن العرب لم يكونوا مستعمرين طامعين في التوسع الاقليمي رغبة في ملك أو مادة، ولكن كانوا مؤمنين بتلك الدعوة، يحاولون إزاله الغواشي التي كانت تقف حاجزا، تمنع الضعفاء من الاستماع للحق والانصات لكلمة الهدى والرشاد.